

قصتي مع نورا

الصداقة كمنهج للبحث في أزمنة الازمات¹

مارينا دي ريخت، الجامعة الحرة، أمستردام²

ترجمة: محمد عبد الحميد عبد الرحمن

خلاصة

هذه ورقة بحثية حول دور الصداقة كمنهج للبحث الأنثوجرافي والإنساني في أوقات الازمات. على نفس منحى روبن (2010) فإنني أجادل في الورقة بأن البحوث الأنثروبولوجية ينبغي أن تتبع أحيانا مناهج بحث غير تقليدية لدراسة بعض مناطق العالم التي يتعذر الوصول إليها بسبب النزاعات والحروب والعنف. أستخدم في هذا البحث صداقتي الطويلة مع نورا³، وهي سيدة يمنية تعيش في ميناء الحديد، ومقابلتين مطولتين أجريتهما معها حول قصة حياتها كمادة بحثية لدراسة أثر الازمات على الناس العاديين. الصداقة بالنسبة لي منهجية بحثية مناسبة وذلك لأن الخواطر والرؤى التي تنبثق من الصداقة الشخصية الطويلة ربما توفر عمقا أفضل من مناهج البحث التقليدية، وأزعم أن الصداقة منهج إنساني هام في أوقات الازمات، لأننا يمكننا أن نعبر من خلال الصداقة عن تضامننا مع الناس أثناء الازمات والظروف الاقتصادية والسياسية الصعبة. لكن استخدام الصداقة⁴ كمنهجية بحثية يثير استفسارات جدية بسبب الخلط بين الذي ينطوي عليه توازن القوى بين الباحث من جهة والمُخبر (مصدر المعلومات) من جهة أخرى والذي يمكن أن يتضاعف أثره في أوقات الأزمات، خاصة إذا اقترنت باعتبارات مالية.

كلمات مفتاحية: الصداقة، منهج البحث، الأزمات، المخبر، إنثوغرافيا.

1 - Marina de Regt. Noura and Me: Friendship as Method in Times of Crisis, in URBAN ANTHROPOLOGY VOL. 44(1, 2), 2015.

2 - مارينا دي ريخت: أستاذ مساعد في قسم الأنثروبولوجيا الثقافية والاجتماعية في الجامعة الحرة، أمستردام، هولندا. عملت في مشاريع التنمية في اليمن بين عامي 1991 و1998. زارت اليمن في العديد من المرات بعد ذلك. وهي مؤلفة كتاب *Pioneers or Pawns? Women Health Workers and the Politics of Development in Yemen* (Syracuse University Press) الذي ترجم ونشر بواسطة دار مهاجرون في القاهرة باسم "رائدات في ظروف غير مواتية" ونشر الكثير من المقالات العملية المحكمة حول العمل، الجندر، والمجرة بين اليمن وإثيوبيا.

³ - نورا اسم مستعار وليس اسمها الحقيقي

⁴ - عبارة "قراءة متخيلة" تم صكها بواسطة تايليمان-هيللي (2003).

Abstract

This paper is about the role of friendship as an ethnographic research method and as a humanistic method in times of crisis. Following Robben (2010), I argue that anthropological research in parts of the world that are inaccessible due to war, conflict and violence, sometimes need unconventional methodologies. I use my long-standing friendship with Noura, a Yemeni woman living in the port city of Hodeidah, and two life story interviews with her as data to discuss the impact of the crisis on ordinary people. Friendship is for me a suitable research method, because the insights that ensue from a long-standing personal relationship may provide more depth than conventional research methods. In addition, I argue that friendship is an important humanistic method in times of crisis; through friendship we can show our solidarity with people in difficult political and economic circumstances. Yet, using friendship as a method also raises serious issues because of the endemic power inequalities between researcher and informant, which can become accentuated in times of crisis when financial issues come into play.

Keywords: friendship, research method, crisis, laboratory, ethnography

مقدمة

نحن في شهر مايو 2015 وقد أنهيت توا مكالمة هاتفية مع نورا وهي واحدة من أعز صديقاتي في اليمن. اعتادت نورا أن تتصل بي هاتفيا كل شهر لتطلب تحويل بعض المال لها لشراء الأدوية، فهي قد أجرت جراحة قلب خطيرة وقد تتعرض للموت إذا لم تتناول أدويةها يوميا. خلال السنوات الخمس عشر الماضية كنت أقدم مساعدات مالية منتظمة لنورا مرتبطة في أغلب الأحيان بمشكلاتها الصحية المستمرة. كانت نورا كأرملة تعمل في مصرف يمني قادرة على إعالة نفسها وأطفالها الثلاثة لكن الطوارئ مثل المتاعب الصحية كانت فوق طاقتها. بدأت مساعدتي المالية لها بشراء نظارات طبية للمرحومة والدتها عام 1995. كنت أسدد كلفة الكثير من النفقات الصحية لنورا منذ عام 2000، وبعد أن أجرت جراحة القلب، التي ساهمت جزئيا في نفقاتها، أتولى دفع تكلفة الأدوية اليومية⁵ التي تحتاجها. عندما انتقلت شرارة الربيع العربي لليمن في فبراير 2011 بعد الثورة في

⁵ - أحول كل شهر مبلغ 40000 (أربعين ألف) ريال يمني. تزايدت نسبة التضخم بسرعة خلال السنوات الأربعة الماضية كان مبلغ 40000 يساوي 185 دولارا أمريكيا في يناير عام 2015. كانت نورا قادرة على تغطية تكاليف معيشتها من راتبها التقاعدي حتى نشوب الحرب

تونس ومصر، كنت ونورا نتطلع بشغف لليمن الجديد. وكنا نتشارك هذه المشاعر المبنية على صداقة وطيدة امتدت منذ عام 1996. لكن السنوات الأربعة الماضية لم تجعل حياتها وغالبية اليمنيين إلا أكثر مشقة ومعاناة. في يونيو 2011، عقب بضعة أشهر من اندلاع الثورة، تقاعدت نورا عن عملها في المصرف المركزي اليمني محتمة أربعة وثلاثين عاما من الخدمة. ولم تتمكن من الحصول على راتبها التقاعدي المستحق الأول إلا بعد عام كامل. أثرت الأزمة السياسية والاقتصادية والحرب التي أعقبتها تأثيرا سلبيا فادحا على حياة المواطنين اليمنيين العاديين، ففي الوقت الذي تضاعفت فيه أسعار السلع الأساسية ثلاثة مرات تقريبا تراجعت دخول المواطنين بل وانقطع بعضها تماما. حتى موظفو الحكومة السابقون مثل نورا يكافحون لتلبية احتياجاتهم الأساسية. راجع (UNOCHA 2014).

تبحث هذه الورقة في تأثير الأزمة على حياة نورا ودور المال في صداقتنا الطويلة التي تعود للعام 1993 عندما بدأت العمل في الحديدية، وتعتمد أيضا على مقابلتين طويلتين عن قصة حياتها أجريتهما معها لأغراض بحثية عامي 2009 و 2013. يتعذر علي في الوقت الراهن مواصلة العمل البحثي الميداني في اليمن بسبب تدهور الأوضاع الأمنية لكنني لازلت على صلة منتظمة بنورا هاتفيا، على الأقل مرة واحدة شهريا عندما تتصل لطلب النقود وقد يحدث أكثر من اتصال واحد شهريا إذا حدثت مستجدات في اليمن.

على خطى روبن (2010) الذي حرر كتابا حول دور الباحثين الأنثروبولوجيين في مناطق النزاعات، أرى أنا أيضا أن الأنثروبولوجيا في بعض مناطق العالم التي يتعذر الوصول إليها بسبب النزاعات والحروب والعنف تحتاج لمناهج بحث مختلفة. يدعو روبن (2010: 3) لـ “خيال أنثروبولوجي عن بعد” ويشدد على “ضرورة التعاطف كتقنية بحثية لفهم وجهة النظر المحلية الأهلية حسب نظرية مالفينوفسكي ومقاربة ابستمولوجية لفهم المواقف الذاتية للناس” (روبن 2010: 4).

أود أن أناقش في هذه الورقة البحثية الفرص والتحديات التي تقدمها الصداقة كمنهج للبحث (تاليمان-هيلي 2003) خاصة في أزمنة الأزمات. وفقا لتاليمان-هيلي (2003: 734)، فإن الصداقة كمنهجية تتضمن أربعة جوانب؛ أولا علينا أن نستخدم “المحادثة، الانخراط اليومي، التضامن والإشفاق، العطاء وتفهم هشاشة الأوضاع” كطرق بحثية. ثانيا، علينا أن نجري البحث على الإيقاع والخطي الطبيعية للصداقة “الزمن المطلوب قد يتغير اعتمادا على ما إذا كان الباحث والمشارك غرباء عند

في مارس 2015.

بداية البحث أم معارف أم أصدقاء أم أصدقاء قريين” (تاليان-هيلي 2003:735). ثالثاً، علينا “أن نوضح بحثنا في السياق الطبيعي للصدقة” وأن نتابع المشاركين في بحثنا في حياتهم (تاليان-هيلي 2003:735). وأخيراً علينا أن نبحث “بأخلاقية الصداقة وموقف مفعم بالأمل والاهتمام والعدالة وحتى الحب” (تاليان-هيلي 2003:735). معظم هذه الجوانب تشكل، في وجهة نظري، جزءاً من البحث الأنثروبولوجي الميداني الجيد (انظر أيضاً جونكر 2007). وأنا أزعّم أن الصداقة يمكن أن تصبح منهجية بحثية مفيدة خاصة في أوقات الازمات الصعبة التي يتعذر فيها الاستعانة بمنهج البحث التقليدي.

يمكننا كباحثين أنثروبولوجيين أن نحصل على بعض الرؤى لما يحدث على الأرض دون إجراء بحوث حقلية في الموقع نفسه بواسطة صلاتنا الشخصية مع الناس في مناطق العالم التي تسودها النزاعات. لكن فترات النزاعات هذه يمكن لها أيضاً أن تؤثر على الصداقات والعلاقات الشخصية بطرق مختلفة ينجم عنها توترات ومعضلات أخلاقية. في حالي يتعلق هذا باعتماد نورا ماليا علي وتأثير ذلك على صداقتنا. التفكير ملياً حول الصداقات في الظروف الصعبة يعتبر جزءاً حيوياً من التعامل مع الصداقة كمنهج بحث. وأنا أستوحي الإلهام من جاي واي بلاسكو (2012 : 448) التي تؤكد أن قصة صديقتها ومحاورتها أجاتا “توجه اهتمامنا إلى فردانية مسارات الحيات الشخصية وتفرض علينا أن نستصحب الحمولة الاثنوجرافية لاعتبارات مثل الشخصية، الطوارئ والظروف وموضع الباحثين الأنثروبولوجيين ومحاورهم (مُخبريهم) في حياة بعضهم البعض.”

هذه الورقة منظمة على النحو الآتي: بداية سأقدم وصفاً لتاريخ صداقتي مع المشاركين (المخبرين) في بحثي بصفة عامة. بعدها اعرض قصة الحياة الشخصية للمشاركة، مع الاهتمام بشكل خاص بتأثيرات الازمة اليمينية والمساعدات المالية التي قدمتها لها خلال السنوات الخمسة الماضية. في الجزء الثالث اقدم عرضاً موجزاً للجدال الدائر حول الصداقة في البحوث (النسوية). بعدها أناقش العلاقة المتغيرة بيني ونورا مع التركيز على التغيرات التي تطرأ على هذه العلاقة غير المتكافئة. وختاماً اعود للتساؤل عما إذا كانت الصداقة مفيدة كمنهج للبحث.

بين الأصدقاء والمخبرين

لعبت الصداقات دوراً مهماً في مشاريع بحثي الأكاديمية في كثير من الأحيان، حيث اعتمدت أثناء إنجاز بحث رسالة الدكتوراه الخاصة بي على مقابلات روت خلالها عدد من النساء اليمينيات قصص حياتهن الشخصية، هذه المجموعة من النساء اليمينيات كن في البداية زميلات عمل ثم صرن صديقات ثم في مرحلة لاحقة تحولن لموضوعات بحث (دي ريجت 2007: 3). عملت بداية وعن قرب مع مجموعة من النساء اليمينيات العاملات في مجال الرعاية الصحية في مشروع تنموي يمني هولندي،

خلال عملي تنامي اهتمامي بحياتهن الشخصية والكيفية التي أثر بها عملهن في مجال التوعية الصحية في تشكيل هويتهن، وكنت استلهم مناهج البحث النسوية مثل ليلي أبو الغد "إنسانية تكتيكية" (1993) لأنها تُخضع تلك التعميمات التي تسود في الكتابة الأكاديمية للمساءلة، خاصة ما تعلق بالنساء في الشرق الأوسط. وقد ركزت اهتمامي على القصص الفردية وحاولت ان اسلط الضوء على خصوصيات حياة صديقاتي، قمت بقراءة سير الحياة المطولة لصديقاتي الأربعة التي تضمنها بحثي ومراجعتها بواسطة الزميلات أنفسهن، بعدها قررت ان اترجم البحث للعربية واطلعت عددا من المخبرين الأساسيين على المسودة وتقدموا بمقترحات للحذف والإضافة انظر (دي رخت 2007: 341-346).

أجريت بحثا لدرجة ما بعد الدكتوراه حول العمالة المنزلية المهاجرة في اليمن في الفترة من 2003 إلى 2006 ، بتركيز خاص على النساء الاثيوبيات في اليمن، وهذه المرة أيضا اقامت صداقات مع العديد من المخبرات الاثيوبيات اللواتي استجوبتهن لجمع مادة البحث ولا زلت على صلة ببعضهن، لكن الامر كان مختلفا هذه المرة فيما يتعلق بمنهجية البحث فقد كان البحث الميداني تقليديا وكانت الصداقات نتيجة طبيعية للعمل الميداني وليست نقطة البداية.

اتخذت علاقتي البحثية مع نورا مسارا آخرًا، التقيت بنورا عام 1993 عند بداية عملي كباحثة أنثروبولوجية في مشروع للرعاية الصحية الأولية في الحديدة⁶، تلقيت من احدى زميلاتي دعوة لحضور حفل زفاف بعد ظهر يوم جمعة كان الطقس حارا وقد أقيم الحفل في خيمة كبيرة نصبت في الشارع بين البيوت وكانت النساء المتأنقات في ملابس زاهية الألوان يجلسن على المقاعد التهامية المصنوعة من الخشب وحبال سعف النخيل، كانت نورا تمضغ القات⁷ وتدخن الشيشة دعني للجلوس بجانبها وشجعتني على مشاركتها مضغ القات وتدخين الشيشة، عندما كنت اهم بمغادرة الحفل دعني لزيارتها في منزلها وكتبت لي رقم هاتفها بقلم احمر شفاه على منديل ورقي.

مدفوعة برغبتني في التعرف على أناس جدد اتصلت بنورا بعد بضع أسابيع فوصفت لي منزلها، أتذكر المرة الاولى التي ذهبت فيها لمنزلها الواقع على شارع جانبي ضيق خلف مكتب البريد في الحديدة، أوقفت سيارتي في الزقاق وبدأت اناديها لأنني لم اكن اعرف أي باب بالتحديد اطرق، كانت أمسية حارة وكان باب بيتها مغطى بستارة من القماش فقط. دخلت مباشرة

⁶ - عملت في اليمن بين عامي 1991 و 1989 في مشروع تنمية تمولهما الحكومة الهولندية. الأول كان مشروعاً لتنمية المرأة الريفية في منطقة رداع وكان المشروع الثاني للرعاية الصحية الأولية الحديدة. كنت مسؤولة عن مشروعات البحوث الصغيرة والمشاركة المجتمعية في الحديدة.

⁷ - القات نبات تحدث اغصانه عند مضغها مفعولا منها خفيفا. يتناول نسبة كبيرة من سكان اليمن البالغين الذكور القات بعد الظهر واستهلاكه بين النساء في تزايد. للمزيد من التفاصيل حول القات ووظائفه الاجتماعية انظر وير (1985) وكندي (1987).

إلى غرفة المعيشة المفروشة بمراتب ومساند على الأرض وتلفزيون على طاولة صغيرة، رحبت بي نورا واجلسني على مرتبة وكان أطفالها الثلاثة ولد وبتان يلعبون في غرفة النوم، كان منزلا صغيرا بمطبخ وحمام في طرف البيت، كان الجو في البيت منعشا ومفرحا واعجبتني الطريقة التي تعاملت بها نورا معي كامرأة أوربية بيضاء تعيش في اليمن، حيث كثيرا ما كان الناس يسألوني عما إذا كنت متزوجة، واين تعيش اسرتي وماذا افعل في اليمن بمفردي وكنت انزعج من هذه الأسئلة المتطفلة حول حياتي الخاصة، في الوقت الذي شعرت فيه بالارتياح من أن نورا لم تسألني حول هذه المعلومات وكانت ترغب فقط في أن استرخي واستمتع بتدخين الشيشة معها. توطدت صداقتي مع نورا خلال سنوات 1993 إلى 1997 التي عشت فيها في الحديدة وكثيرا ما كنا نتناول الغداء معا أيام الجمعة وكنا نمضغ القات وندخن الشيشة ونذهب لحفلات الزواج وغيرها من المناسبات الاجتماعية سويا.

كان زملائي في وزارة الصحة اليمنية يستغربون صداقتنا الحميمة هذه ويتساءلون عن أسبابها، تنحدر نورا من أصول يمنية اثيوبية وكانت بشرتها أكثر سواد من غالبية اليمنيين، كان والدها يمنية فيما كانت والدتها اثيوبية / ارترية، هاجر والدها لإثيوبيا في النصف الأول من القرن العشرين مثل الكثير من اليمنيين الذين هربوا من الأوضاع الاقتصادية والسياسية السيئة في بلادهم تحت حكم الإمامة⁸، تزوج بعضهم من نساء من البلدان التي هاجروا إليها وعادوا لليمن بأسرهم بعد سقوط الإمامة في ستينيات القرن الماضي، نجم عن زواج الرجال اليمنيين بنساء اثيوبيات نشوء جماعة كبيرة من ذوي الأصول المختلطة درج اليمنيون على تسميتهم بالمولدين، أثرت حقيقة أن هؤلاء المولدين ينحدرون من أصول ليست يمنية نقية، على وضعهم الاجتماعي ونتج عنه واحدة من الانقسامات الأكثر حدة في المجتمع اليمني، بين الذي يعتبرون انفسهم ذوي أصول يمنية نقية والذين يُحجب عنهم هذا الامتياز (فون بروك 1996 و 148)، حت أصبح يميل المولدون في بعض الأحيان لإنكار أن امهاتهم من أصول غير يمنية، خاصة إذا كن افريقيات لتجنب الوصمة السلبية والتمييز، لقد جاءوا إلى اليمن صغار السن أو وُلدوا فيها ويعتبرون انفسهم يمينيين، لكن نورا على أية حال كانت فخورة بمجذورها الاثيوبية الارترية وفي الوقت نفسه لم تتمتع بوضع اجتماعي عال كامرأة ذات أصول مختلطة.

خلال السنوات التي عشتها في الحديدة لم تكن نورا اقرب صديقاتي فحسب بل كانت اهم مخبر ومصدر للمعلومات بالنسبة لي، كانت تحب الحديث عن تاريخ المولدين وتعرف تقريبا كل ذوي الأصول اليمنية الاثيوبية في الحديدة، أصبحت

⁸ - كان اليمن يحكم لقرون بنظام الامامة يتولى فيه امام زيدي الزعامة السياسية والدينية. سقط نظام الامامة في اليمن عام 1962.

شديدة الاهتمام بتاريخ هجرة اليمنيين إلى اثيوبيا وارتريا ومنهما إلى اليمن بسبب صداقتي مع نورا، لم تمنح الدراسات اليمنية إلا اهتماما محدودا جدا للكيفية التي اثرت بها الهجرة إلى القرن الافريقي على سكان اليمن، تركز معظم الدراسات على اليمنيين ذوي الأصول اليمنية “الصرفة” خاصة اولئك الذين يعيشون في المناطق القبلية في الأجزاء الداخلية من البلاد (راجع دريش 1989؛ فوم بروك 2005؛ كاتون 2005؛ وير 2007)، لكن وعلى اية حال فقد هاجر الكثير من اليمنيين حتى من المناطق الداخلية القبلية، لم يحظ موضوع الجندر بالكثير من الاهتمام في الدراسات القليلة التي تناولت هجرة اليمنيين لإفريقيا (راجع كارمايكل 2006؛ والكر 2008؛ مانجر 2010)، كانت الغالبية العظمى من المهاجرين اليمنيين من الرجال وغالبا ما تزوجوا بنساء افريقيات وعادوا إلى اليمن في ستينيات وسبعينيات القرن الماضي، أثناء ابحاثي لدراسات ما بعد الدكتوراه بين عامي 2005 و 2007⁹ جمعت عددا من قصص تواريخ الحياة الشخصية لنساء افريقيات حثن إلى اليمن بصحبة ازواجهن، لسوء الحظ لم تكن المرحومة والددة نورا بينهن لكن نورا اوصلتني بثلاثه من صديقات أمها اللواتي رغبن في التحدث إلي (انظر دي ريخت 2010)، بعد أربعة سنوات من ذلك التاريخ أي عام 2009 أجريت مقابلة مع نورا حول قصة اسرقها وخاصة حول هجرة والدها وعودة الاسرة إلى اليمن. وأجريت مقابلة أخرى معها حول قصة حياتها في مارس 2013، وكنت ارغب هذه المرة في التعرف على المزيد من تفاصيل قصة حياتها منذ أن بدأت العمل حتى زواجها، كانت زيارتا العمل الميداني خلال عامي 2009 و 2013 قصيرتان، مكثت في اليمن لأسبوعين فقط وقضيت يومين أو ثلاثة أيام فقط في الحديدة، كان من الصعب الحصول على تأشيرة دخول لليمن كما تعذر التنقل بحرية في مدينة الحديدة بسبب تدهور الأوضاع الأمنية وبالرغم من ذلك فإن الزيارتين، إضافة لصداقتي الطويلة مع نورا شجعتني للمضي قدما في كتابة هذه الورقة عن العمل الميداني والصداقة في الظروف الصعبة.

قصة حياة نورا

عندما التقيت بنورا عام 1993 كانت ارملة وام لثلاثة أطفال، كان زوجها قد توفي بأزمة قلبية منذ ثلاثة سنوات، وكانت تعيش في منزل زوجها فيما كانت والدتها تعيش مع احتها التي تسكن نفس الحي في مدينة الحديدة وكثيرا ما كانت الام تقضي بعض الوقت مع نورا، جاءت الام لليمن مع زوجها واطفالها في ستينيات القرن الماضي وكانت متمسكة بهويتها الحبشية¹⁰ (الاثيوبية)، كانت امرأة قصيرة ونحيفة وتدخن في بلد لا تجرؤ فيه النساء على التدخين عادة وغالبا ما كانت تلبس (شما) عندما

⁹ - أجريت دراسة ميدانية لثمانية اشهر في العاصمة صنعاء وشهرين في الحديدة بين عامي 2004 / 2005 لبحوث ما بعد الدكتوراه.

¹⁰ - عبارة حبشي تشير لكل ذوي الأصول الاثيوبية والارترية.

تخرج من منزلها وهو فستان ابيض فضفاض شائع بين الإثيوبيات والإرتريات وكانت تقيم كل يوم اربعاء جلسة تقليدية لتناول القهوة وهي عادة جلبتها من ارتريا لليمن، لم تكن والدتها نورا هي الحبشية الوحيدة¹¹ في الحديدة لأنه عاد الكثير من المهاجرين اليمنيين من القرن الافريقي لبلادهم في الستينيات والسبعينيات مصطحبين زوجاتهم واطفالهم المختلطين، استقروا في منطقة بنيت خصيصا للمهاجرين العائدين من افريقيا (انظر دي ريخت 2007: 199) او في مناطق أخرى من المدينة وشكلوا جماعة متجانسة ومتراصة، هاجر والد نورا إلى اثيوبيا عندما كان في السادسة عشر من العمر عمل حمالا في بداية حياته ثم التحق جنديا في الجيش الإيطالي ثم عمل في شركة تجارية، ثم امتلك مزرعته الخاصة وتزوج بامرأة من ذات المنطقة التي تقع فيها مزرعته، ولدت ام نورا في منطقة آرسي جنوبي اديس ابابا لكنها تربت في منطقة ارتريا الحالية وانجبت اكثر من ثمانية أطفال مات بعضهم. عاد والد نورا إلى اليمن عام 1963 برفقة زوجته واطفاله الخمس الذين بقوا على قيد الحياة وكانت نورا احدهم¹²، سقط نظام الامامة في اليمن عام 1962 مما حفز الكثير من المغتربين اليمنيين للعودة إلى بلادهم على أمل ان تتطور بلادهم اقتصاديا، ومن جانب اخر دفعت الظروف السياسية المتغيرة في القرن الافريقي بتسريع هذه العودة الجماعية.

تولت السلطة في بلدان القرن الافريقي حكومات وطنية وتغيرت النظرة للأجانب، يضاف إلى ذلك عامل مهم وهو بدء النضال الإرتري للاستقلال عن اثيوبيا وحظيت بالمساندة من عدد من الدول العربية مما صعد المشاعر المعادية للعرب في أجزاء أخرى من القارة الافريقية ونظمت مظاهرات واسعة ضد المهاجرين العرب في بلدان القرن الافريقي قرر الكثير من اليمنيين العودة لبلدهم نتيجة لذلك، وعاد الذين تبقوا في اثيوبيا وارتريا لبلادهم عندما بدأ الرئيس الاثيوبي منقستو في مصادرة ممتلكات ومتاجر الأجانب عام 1970 وبدأت موجة من الإرهاب الحكومي ضدهم.

لم يكن والد نورا راغبا في العودة إلى قريته في الريف اليمني وفضل الاستقرار بأسرته في الحديدة. توفي اثنان من أطفال الاسرة بمجرد عودتهم لليمن وغادر الابن المراهق أسرته دون رجعة¹³، بدأ الوالد حياته في اليمن بالعمل كحمال ثم التحق بشركة بناء صينية وسرعان ما مرض وتوفي عام 1970. اضطرت والدتها نورا للعمل كخادمة في المنازل ثم بدأت تباع اللحوح (نوع من الخبز الناعم الذي يخبز في البيوت) في الشوارع، تركت نورا المدرسة في السادسة عشر من العمر بدأت العمل في بنك كعاملة في عد النقود حتى تستطيع والدتها ترك العمل، تم قبولها في العمل بالرغم من محدودية تعليمها “بدأت العمل في المصرف اليمني

¹¹ - عبارة حبشية تعني امرأة من أصول اثيوبية او ارترية.

¹² - ولدت نورا في مدينة تسنى في ارتريا عام 1961.

¹³ - كان لوالد نورا ولد من زوجته الارترية الاولى ولم يكن سعيدا بالعودة لليمن وهرب من البيت في سن المراهقة.

المركزي بعد ان أكملت أربعة سنوات فقط من التعليم الأساسي كانوا يريدون شخصا يعد النقود وليس من الضروري ان يحسن القراءة والكتابة¹⁴ ... قلت: لأمي دعي عائشة (اختها الاصغر) تكمل تعليمها¹⁵ ومنذ تلك اللحظة أصبحت نورا هي العائل الرئيسي لأسرتها فيما اكملت شقيقتها عائشة تعليمها الثانوي وتدرت كمرضة، رتبت نورا للذهاب لعملها والعودة منه مثل غالبية النساء العاملات في اليمن مع سائق تاكسي يدعي عبد الكريم، الذي كان مغرما بالموسيقى السودانية مثل نورا وبعد شهر من لقائهما طلب عبد الكريم ان يقابل أمها بحجة انه يريد ان يتذوق طعم طبق الزغني¹⁵ الذي تعده الوالدة، لكنها كانت مجرد حجة لمقابلة الام ليطلب يد نورا، قالت له والدتي "لماذا تسألني انا ... عليك ان تسألها هي! لأن الكثير من الرجال تقدموا لطلب يدي ورفضتهم جميعا، لم أكن أريد الزواج لماذا؟ لأنني سوداء البشرة كنت أحشي أن أنجب أطفالا سودا إذا تزوجت برجل أسود، كنت أريد أطفالا بيضا"، قبلت نورا بعبد الكريم عريسا فورا لأنه "كان أبيض البشرة"¹⁶.

ينحدر عبد الكريم من أصول صنعانية وقد نشأ في المملكة العربية السعودية وكان مطلقا ووالدا لطفلين كانا يعيشان مع أمهما في البداية ثم انضموا لعبد الكريم ونورا، الولد الأكبر منهما ضل طريقه مبكرا وبدأ في ادمان المخدرات اثناء مراهقته وسبب لهما الكثير من المتاعب، وتزعم نورا ان القلق على الابن هو سبب الازمة القلبية التي أودت بحياة عبد الكريم الذي فارقتها تاركا ولدا وبتين ويفضل عملها في البنك تمكنت نورا من الانفاق عليهم وارسالهما للمدرسة، ساءت حالة نورا وأصبح وضعها حرجا بعد وفاة أمها. "عندما مرضت امي تضاعفت مسؤولياتي، استمر مرضها لخمس سنوات وكانت تعيش معي حتى توفيت .. كان ارهاقي قد وصل قمته بوفاتها وتكاثرت المصاعب .. لم يعد قلبي يتحمل يا مارينا .. وبدأت المتاعب في القلب وارتفاع ضغط الدم وتدهورت صحي .. كانت بنتاي محظوظتان .. كنت اريد ان اري اولادي متزوجين قبل ان اموت، رتبت لزواج بنتي بنفسي لكن زوجيهما كانا عاطلان عن العمل، قلت لنفسي هل ازوجهما لرجال فقراء ام لرجال مغتربين في السعودية ولديهم أموال وفيرة لكنهم قد يهجرون بناتي وابنائهم؟ قررت ان ازوجه لرجال اعرفهم¹⁷، لكن الحياة قاسية ولم يعد بوسعي تحمل المسؤوليات."

¹⁴ - كان يوسع خريجي المدارس الابتدائية الحصول على وظيفة حكومية بسبب تدني مستوى التعليم في اليمن في السبعينيات.

¹⁵ - زغني هو الاسم اليمني لطبق اثيوبي ارتري يعد بالدجاج والبصل والصلصة.

¹⁶ - اليمن مجتمع عنصري يعتبر فيه الأشخاص ذوي البشرة البيضاء أعلى قيمة من ذوي البشرة الداكنة. المواطنون الذي ينتمون للطبقات العليا ويسكنون في المناطق الداخلية من البلاد لديهم بشرة فاتح لونا من سكان المنخفضات والمناطق الساحلية ويعتبرون انفسهم بيض.

¹⁷ - ساهمت ماليا في زواج أبناء نورا الثلاثة.

اجريت جراحة لنورا في قلبها في نوفمبر 2010 في مستشفى خاص في صنعاء، وتحمل مخدمها البنك المركزي اليمني نصف التكلفة ودفعت انا النصف الاخر¹⁸، اختير المستشفى بتوصية من البنك المركزي اليمني وقد جرت العملية بنجاح لكن الطبيب وصف لها ادوية غالية الثمن يتعذر على نورا تحمل تكلفتها. عندما عادت للعمل في فبراير 2011، اقترح عليها رئيسها ان تتقاعد لأنها عملت في البنك لأربعة وثلاثين عاما ولم يبق لها إلا عام واحد وتتحول بعدها للتقاعد الالزامي¹⁹. عرض عليها البنك التقاعد المبكر ووافقت نورا لكن إجراءات تسلم راتبها التقاعدي استغرقت عاما كاملا ولم تتسلم مكافأة نهاية الخدمة حتى الان²⁰، في الوقت الذي بدأت فيه نورا إجراءات التقاعد المبكر، اندلعت الثورة في اليمن خرج شباب اليمن يتظاهرون في الشوارع استلهاهما للثورتين التونسية والمصرية لإسقاط الرئيس علي عبد الله صالح الذي كان يحكم البلاد منذ عام 1978، استمرت الثورة حتى وافق الرئيس علي عبد الله صالح على التنازل عن السلطة في بداية نوفمبر 2011.

تابعت نورا المهمة بالسياسة التطورات في بلادها بشغف متطلعة لمستقبل أفضل خاصة وان الأوضاع السياسية والاقتصادية في اليمن كانت قد تدهورت منذ التسعينيات، تأثرت صحة نورا الجسدية والنفسية بتطاول امد الثورة واندلاع العنف ورفض الرئيس صالح التنحي عن السلطة، تزايدت متاعبها الصحية وتفاقم مرض القلب حتى انها اضطرت للسفر لصنعاء عدة مرات لمتابعة الفحوص الطبية والعلاج، غالبا ما كانت تسافر لصنعاء بمفردها في سيارة تاكسي مشتركة وكانت تقيم في فنادق في العاصمة صنعاء حيث لا تملك أقارب او أصدقاء، وكانت تتصل بي من صنعاء لتشرح لي أوضاعها وتطلب مني ان ادفع تكلفة العلاج او الادوية او الإقامة في الفنادق، كانت تبكي اثناء المحادثات الهاتفية وكنت استمع لحكاياتها واطمئننها واحول لها المال في احدي المرات استوقف لصوف مسلحون سيارة التاكسي التي كانت تستقلها من الحديدة الي صنعاء وسلبوا كل الركاب جميع أموالهم ووصلت نورا الي صنعاء خالية الوفاض فبعثت لها بعض المال، وبعد أسابيع قليلة دفعت لها قيمة تذكرة الطائرة إلى الحديدة لأنها باتت تخشى السفر برا، ترى نورا ان توقف البنك المركزي اليمني عن دفع المعاشات والرواتب التقاعدية يرتبط مباشرة بالإطاحة بالرئيس صالح وأن الأخير كان يقف وراء نهب البنك المركزي “منع الجميع من الدخول لمقر البنك المركزي في اليوم الذي جاء فيه رجال الرئيس صالح للبنك .. حملوا الأموال في الحقائب وحملت الحقائب إلى سيارات كبيرة وشاحنات، سألناهم لمن يحملون هذه الأموال؟ قالوا لعل علي عبد الله صالح انفق بعضها في اليمن وأخذ الباقي للخارج، لذلك لم يعد في البنك

¹⁸ - بلغت الكلفة الاجمالية للعملية الجراحية 2000 دولارا أمريكيا.

¹⁹ - يسمح لموظفي الحكومة في اليمن بالتقاعد بعد 35 عاما من العمل.

²⁰ - عقب التقاعد يتسلم موظفو الحكومة اليمنية مكافأة نهاية الخدمة.

اية أموال” قرر عدد من زملاء نورا تكليف محام بمقاضاة البنك المركزي اليمني لإرغامه على دفع رواتبهم التقاعدية في فبراير 2012 وقررت نورا ان تنضم للمجموعة ودفعت انا نصيب نورا من اتعاب المحامي لكن جهدهم ضاع سدى ولم يتمكن المحامون من ارغام البنك على دفع الرواتب التقاعدية ومكافأة نهاية الخدمة.

تزايدت متاعب نورا الصحية في حريف 2012 ونصحها الطبيب بإجراء جراحة تشخيصية في القلب لتحديد أسباب اوجاعها فذهبت لصنعاء وللمستشفى اخر هذه المرة، حيث أصيبت بصدمة عندما علمت ان العملية الجراحية الاولى التي أجريت لها كانت خدعة لا طائل منها. “لم اشعر باي تحسن عقب العملية الجراحية وعدت للمستشفى حيث قالوا لي اصبري بضع أيام وبقيت هناك لأيام وطلبوا مني أن ادفع 70.000 أو 80.000 او 90.000 ريال²¹. ” وتلك الطريقة لم ادرك اهم يخدموني وانهم لم يفعلوا شيئا (لم يجرؤوا عملية حقيقية). في البداية اعتقدت ان مشاكلتي الصحية نتجت عن العملية لكنني فهمت الامر لاحقا، لم يفعلوا شيئا، اخذوا المال فقط.”

عندما افادت نورا من صدمتها قررت من مقاضاة المستشفى واكتشفت ان هنالك مرضى اخرون كثر بقصص مشابهة. اتضح ان المستشفى اللبناني الذي أجريت فيه العملية لنورا له صلة وثيقة بأحمد علي عبد الله صالح نجل الرئيس السابق وان غش المرضى كانت وسيلتهم لكسب المال، غادر البلاد جميع الأطباء اللبنانيين الذين اجرؤوا العملية اثر تدهور الأوضاع السياسية في البلاد بتدبير من اطراف سياسية معينة وفقا لنورا، مرة اخرى عجز المحامون عن استعادة حقوق نورا في بداية الامر كانت متفائلة بأنها ستعوض ماليا عن كل الاضرار التي لحقت بها، وقد انصفتها المحكمة بالفعل لكن الأموال التي وعدت نورا بالحصول عليها لم تأت قط، لم تجر جراحة ثانية في القلب حيث رضيت بآلامها واستعانت عليها بتناول الأدوية يوميا.

في ذات الوقت، تزايد تدهور الأوضاع السياسية في اليمن حيث استولي المتمردون الحوثيون المنطلقون من محافظة صعدة في شمال اليمن قرب الحدود مع السعودية، على العاصمة صنعاء ووسعوا نفوذهم الى منطقة الحديدة، نجم عن الانتصارات التي حققها الحوثيون سلسلة من الصدمات والهجمات التي شنها تنظيم القاعدة، احتل الحوثيون القصر الرئاسي في صنعاء في يناير 2015 لرفضهم تقسيم اليمن لأقاليم حسب مسودة الدستور الجديد الذي اتفق عليه، لأن ذلك يعني تخليهم عن عدد من المناطق التي كانوا يسيطرون عليها، استقال الرئيس عبد ربه منصور هادي وحكومته في 22 يناير 2015 بعد أن اجبرهم الحوثيون على

²¹ - في يناير 2015 كان مبلغ 80000 ريال يعني يساوي 370 دولارا امريكي.

توقيع اتفاق جديد، وضع الحوثيون الرئيس عبد ربه منصور هادي قيد الإقامة الجبرية في منزله لكنه تمكن من الهرب إلى عدن وعند تقدم الحوثيين إلى عدن، هرب الرئيس هادي إلى المملكة العربية السعودية ودعا مؤتمر القمة العربي في مارس 2015 لمساعدته في مواجهة الحوثيين، شن التحالف العربي بقيادة السعودية ضربات جوية ضد الحوثيين في اليمن في 25 مارس 2015 مما شكل تصعيدا للنزاع وحولها لحرب واسعة مكتملة الأركان.

كانت نورا قلقة جدا بشأن الوضع في البلاد، كانت تخشى ان يحاول الحوثيون إعادة نظام الامامة في اليمن لأنهم زيديون ينتمون لنفس الاسر التي كانت تحكم اليمن في عهد الامامة، وفهمت نورا أيضا ان الرئيس على عبد الله صالح كان وراء التوسع السريع للحوثيين وسيطرتهم على اليمن، بالرغم من أن الرئيس السابق خاض عدة حروب ضد الحوثيين عندما كان في السلطة اصبح من الواضح ان صالح يدعم الحوثيين لإشاعة عدم الاستقرار في البلاد لإعادة أنصاره للسلطة.

نصحها ابناؤها بالكف عن متابعة الاخبار السياسية لأنها تؤثر على صحتها، عندما سيطر الحوثيون على الحديدة في سبتمبر 2015 فقد ابن نورا عمله في الميناء وكذلك زوج بنتها عمله ايضا: “توليت مسؤوليتهم صغارا وها أنا احمل نفس المسؤولية وهم رجال زوجتهم واعتقدت اني سأرتاح لكنني لم أجد الراحة، لم يعد قلبي يحتمل ما يحدث وعندما أجريت لي العملية لم يجروها كما يجب حتى الأطباء خذلوني.”

الصدقة في الانثروبولوجيا، الصدقة كمنهج بحث

كانت نورا مهتمة بالسياسة دائما واستمتعتنا بمشاهدة الاخبار سويا والتحدث حول الأوضاع في اليمن، وكان للتطورات السياسية في اليمن خلال السنوات الأربعة الماضية تأثيرا كبيرا على حياة نورا، وكنت اشاركها قلقها حول مستقبل اليمن في المحادثات الهاتفية التي تجري بينها، كنت ادون بعض الملاحظات عقب محادثتنا الهاتفية أحيانا، لكنني كنت انظر لهذه المحادثات الهاتفية في غالب الأحيان كصدقة خالصة وليست صدقة بحث، ومع ذلك وعندما تزايد الاعتماد المالي لنورا على بدأت أفكر في الكتابة عن الكيفية التي تطورت بها علاقتنا، وقد عانيت من التغيرات التي طرأت على علاقتنا كما ترددت دائما في اتخاذ القرار حول ارسال المال لها او الامتناع عنه، لكنني كنت انظر الى هذه التغيرات باعتبارها انعكاسا لفارق القوى بينها: أنا كامرأة عازبة جيدة التعليم، بيضاء اللون منتمية للطبقة الوسطى تعمل في وظيفة ذات راتب جيد في جامعة هولندية، ونورا كامرأة سوداء نالت تسعة سنوات من التعليم الأساسي فقط ارملة بثلاثة أطفال، تعمل صرافة في بنك يمني في بلد متخيم بالمشكلات السياسية

والاقتصادية، يُفترض ان يبنى الأنثروبولوجيين علاقات وثيقة بمخبريهم ومصادر معلوماتهم لكن الصداقة ليست موضوعا لنقاش واسع في الانثروبولوجيا²².

حظيت العلاقات بين الأنثروبولوجيين ومصادر معلوماتهم الرئيسيين باهتمام أوسع، وصف كاسجراند (xi 1960) الذي جمع عشرين سيرة شخصية كتبها انثروبولوجيون عن مخبريهم (مصادر معلوماتهم) - وصف - هذه العلاقة باعتبارها ارتباطا إنسانيا ذي طبيعة فريدة لأنها غالبا ما تجمع أشخاصا ذوي خلفيات ثقافية متباينة وتتضمن قدرا كبيرا من الندية والعلاقة التبادلية، بالنسبة للعلاقة التبادلية يرى فيرث (xiv 199) أنه "عادة ما تكون سيطرة الأنثروبولوجيين على الموارد المادية اكبر لكن بمرور الوقت وتحقق التكافؤ في الشخصيات تتغير هذه العلاقة لتبنى على الندية والتساوي او تقل أهميتها ويتم تجاهلها،" من الواضح ان هذا التفسير إيجابي للعلاقة لكن علاقات البحث غالبا ما تستبطن قدرا كبيرا من عدم توازن القوى، وكذلك علاقات الصداقة بين الأنثروبولوجيين ومخبريهم، وقد أشار الباحثون النسويون بشكل خاص لأهمية موضوع اختلال ميزان القوى وعدم التكافؤ في علاقات البحث.

تم الاحتفاء بفكرة "أخوات على نطاق العالم" (Global sisterhood) في سبعينيات القرن الماضي وتم تشجيع الباحثات النسويات على اجراء بحوث فعالة للمساعدة في تحسين ظروف حياة النساء موضع بحثهن، خضع هذا الموقف لتساؤلات واسعة واعتبر ساذجا في الثمانينيات والتسعينيات واعطيت أهمية أكبر للطرق المختلفة التي تتحول بموجبها علاقة البحث لعلاقة استغلالية (ويتكر 2011: 57)، اتخذ فيسزوران (1997: 614)، بين آخرين موقفا نقديا من الباحثين النسويين الذين ادعوا ان علاقات بحثهم كانت مبنية على الصداقة: "استُخدم مصطلحا صديق ومخبر بطريقة تبادلية (كمترادفين)... وغالبا دون تقديم تفسيرات او تعليقات حول التناقضات وعلاقات القوى التي تنطوي عليها العبارتان" استخدمت ويتكر (2011: 65) الصداقة كمنهج في بحثها حول تحالف نساء إيرلندا الشمالية، وبينما تُعرف الصداقة دائما باعتبارها قائمة على المساواة والتبادلية والندية فإنها ترى ان الصداقة لا يمكن ان تصبح خالية من السياسة وعلاقات القوى، وان مقارنة اكثر سياسية للصداقة ربما تكون افضل في مساعدتنا على التعرف على الموضوعات الأخلاقية والأبستمولوجية في العمل الميداني النسوي وفي مضمار السياسة. " (ويتكر 2011: 65). تبدو مشكلات علاقات القوى وعدم التكافؤ اكثر وضوحا اثناء

²² - كانت الصداقة موضوعا لدراسات الأنثروبولوجيين (مثلا بيل و كوليمان 199، ديساي و كلليك 2010)، لكن علاقات الصداقة بين الأنثروبولوجيين ومصادر معلوماتهم مخبريهم لم تلق عناية كافية.

الكتابة، حاول الأنثروبولوجيين النسويون تكسير الهوة بين الباحثين ومخبريهم باستخدام طرق جديدة في الكتابة الانثوجرافية (انظر على سبيل المثال، بهار 1990، ابولغد 1993، بهار وغوردون 1995، فرانك 2000).

طورت جيليا فرانك (2000: 3) مصطلح “السيرة الثقافية” في كتابها حول العلاقات التي بنتها خلال عشرين عاما من العمل البحثي مع النساء الأمريكيات المعوقات، وتعتبر منهجية السيرة الثقافية مزجا بين المناهج الانثوجرافية وتاريخ الحياة الشخصية، وتختلف السير الثقافية عن قصص الحياة بتضمنها مواد انثوجرافية تعتمد على ملاحظات منتظمة جمعت بواسطة الباحث شخصا وعلى مدى زمني طويل اثناء المشاركة في حياة الأشخاص موضع البحث، على ان يضع الباحث في اعتباره تأثيره الشخصي في عملية جمع المعلومات والتوصل لاستنتاجات في المقام الأول لأهميتها” (فرانك 2000: 21)، تصف فرانك علاقتها القديمة الوطيدة بديانا والكيفية التي سمحت لها بها ديانا للدخول في حياتها كباحثة ولكن كصديقة أيضا، وتصف أيضا ابعاد علاقة القوى في صداقتهم والطرق التي استجابت بها ديانا لكتابات فرانك وعلاقات القوى المستبطنة، لم تقبل ديانا الوضع التابع الذي يجعلها امرأة تتم الكتابة عنها وفي لحظة معينة قررت ان تكتب بنفسها كتابا عن حياتها.

بالرغم من الطرق التجريبية الكثيرة لكتابة الانثوجرافيا يبقى الأنثروبولوجيون في اغلب الأحيان هم المؤلفون، ويظل المخبرون هم من يكتب عنهم، تحدث جاي بلاسكو ومخبرتها وصديقتها دي لاكروز هيرنارديز (2012) هذا التقسيم التقليدي بكتابة مقال مشترك حول صداقتهم طويلة الأمد، قدمت جاي بلاسكو (2010؛ 2011) وحللت قصة مخبرتها الرئيسية وصديقتها الحميمية اغاتا ليرا²³ في مقال آخر، اما الآن فقد قررتا ان تستخدم طريقة اكثر تجريبية للتوصل الى “أنثوجرافيا تضامنية وندية” وفي الخلاصة تعلنان: “كانت علاقتنا غير متكافئة ليس لأن بلوما كانت اكثر ثراء لكن لأن ليرا كانت صديقة بالدرجة الأولى، بينما كانت بلوما صديقة وانثروبولوجية في نفس الوقت حتى تحقق الانثروبولوجيا طاقتها الكامنة في تغيير العالم، لا ينبغي فقط الاعتراف بمثل هذه العقبات، بل ينبغي التقليل من شأنها، نأمل ان نكون قد ساهمنا مساهمة متواضعة في هذا المشروع بالكتابة سويا عن حياتنا وعن صداقتنا وعن عوالمنا.” (جاي بلاسكو ودي لاكروز هيرنارديز 2012: 14).

ومن المثير للاهتمام ان معظم النقاشات حول الصداقة في مجال البحوث تعتمد على وضعيات تطورت فيها علاقات صداقة بين الباحثين ومخبريهم موضوع بحثهم لكن ماذا عن البحوث التي انطلقت أصلا من صداقة قائمة؟ من النماذج على مثل هذه البحوث بحث تيلمان - هيلي حول الصداقة بين المثليين والأشخاص العاديين (2001؛ 2003)، بدأ البحث بمشروع

²³ - تستخدم بيلاسكو الاسم المستعار اجاتا في المقال الذي كتبه بمفردها، لكن في المقال الذي كتبه سويا تستخدم تيرا اسمها الحقيقي.

فصل دراسي استجوبت خلاله ليزا تيلمان – هيلي صديقا مثليا حول صداقاته وامتدت لمشروع بحثي استغرق ثلاثة سنوات، تدعو تيلمان – هيلي لاعتماد الصداقة كمنهج بحثي مستوحية تقاليد الانثروبولوجيا التعريفية ومناهج البحث النسوية، وهي ترى أن هذا المنهج يضمن عددا من المزايا للباحثين والمشاركين في البحث:

“تستدعي الصداقة كمنهج ندية جذرية وتحولا من دراستهم هم إلى دراستنا نحن.” (تيلمان – هيلي (2001: 2003)، وبالرغم من انها تناقش قضايا أخلاقية مثل القبول الواعي والمدرک، الحفاظ على السرية، الكرم والاربحية، إلا أنني افتقد فيها تناولا معمقا للمعضلات الأخلاقية التي تنجم عن علاقة الصداقة المرتبطة بصداقة البحث.” وإحدى هذه المعضلات هي تلك المتعلقة بدور المال وبشكل خاص كيف يؤثر عدم التكافؤ المادي في الصداقة والصداقة البحثية، ويكتسب هذه الامر أهمية إضافية عندما يدرس الباحثون أشخاصا لا يحظون إلا بموارد مادية شحيحة.

أنا ونورا : صداقة في زمن الازمة

عندما مددت يد العون لنورا لأول مرة بشراء نظارة طبية لأمها، كنت ادرك انني أقوم بعمل مثير للجدل وسط الغربيين الآخرين الذين يعيشون في اليمن، كان هنالك نقاش يتجدد دائما، وسط الجماعة التي كنت انتمى لها من خبراء المساعدات التنموية الأجانب، حول تقديم العون المادي للزملاء والأصدقاء، وكان الرأي السائد هو ان علينا ألا نمنح المال، لأن ذلك سيؤدي إلى المزيد من المطالب المالية وإلى نشوء حالة من التبعية، بما أنني نشأت على الأفكار المسيحية التي تدعو إلى اقتسام الخيرات مع المحرومين والاقبل حظا وتأثرت بالأيديولوجيا النسوية حول التضامن مع النساء اللواتي يعشن ظروفًا صعبة، فقد اتخذت موقفا مغايرا وقررت ان اساعد الأصدقاء المقربين وقت الحاجة²⁴.

عدت لهولندا عام 1998 بعد أن عشت في اليمن لستة سنوات وعندها بدأت مساعداتي المادية المنتظمة لنورا، في البداية كانت تتصل بي من وقت لآخر ربما بضع مرات في السنة، لكن مساعداتي لها بدأت تكبر تدريجيا كنت اعرف انها تعيش أوضاعا صعبة كأرملة وام لثلاثة أطفال ودون أقرباء يساعدونها، وفي مقابلة معها عام 2013 عبرت نورا عن وضعها بالقول: “أنا اعاني من المرض بسبب المشاكل الكثيرة التي تواجهني في بعض الأحيان عندما يفقد شخص ما والديه فإنهما يتركان له شيئا ما، بعض المال او بيت وربما يتلقون المساعدة من الأقارب، أما أنا فقط ورثت الفقر والظروف القاسية فقط، كل الذين حولي ماتوا

²⁴ – ساعدت صديقا يمينيا اخرًا بالتعاون مع زميلين آخرين عملا في اليمن أيضا في بناء منزل على قطعة ارض كان قد اشتراها له احد الزميلين.

وتحملت المسؤولية عنهم جميعا ماتوا وتركوا لي المعاناة ولم اعد قادرة على تحملها، كنت قوية لكني صرت ضعيفة الآن واحاج لمن يساعدني.”

صرنا نتواصل اكثر عندما أصبحت الهواتف النقالة في متناول الجميع وتزايدت مطالب نورا المالية، كانت غالبا ما تعطيني إشارة بمكالمة مقطوعة وعندما اعاود الاتصال بها تخبرني انها بحاجة لبعض المال تدهورت حالتها الصحية، لكن هنالك احتياجات مالية اخرى كان يجب تلبيتها أيضا فقد رتبت نورا زواج بنتيها وولدها وهو امر باهظ التكلفة في اليمن²⁵ خاصة بالنسبة للرجال، لم يكن لدى ابنها عمل منتظم وكان من الصعب عليه الحصول على عروس، تعذر الزواج على الكثير من الشباب بسبب الأوضاع الاقتصادية المتردية كما هو الحال في الكثير من بلدان النصف الجنوبي من العالم (انظر هونونا 2012).

قررت ان أساهم ماديا في زواج انجال نورا خاصة ابنها، على أمل أن يتمكن من رعاية امه بعد ان يتزوج ويكون اسرته الخاصة به، لسوء الحظ لم تتمكن نورا من الاستغناء عن مساعدتي بعد زواج أولادها واستمرت مطالبتها المادية، عندما أصبحت نورا بحاجة لإجراء جراحة في القلب حاولت أن امتنع عن المساعدة وأن أوضح لها ان المبلغ المطلوب كبير وإنني لن أتمكن من المساهمة، وكانت النتيجة انها لم تخر العملية وواصلت مهاتفتي بين وقت وآخر حتى استسلمت للضغوط ووافقت على دفع نصف التكلفة، أوضحت لها في محادثاتي الهاتفية أن موضوع النقود يؤثر على صداقتنا: ولم اعد اتصل بها هاتفيا خشية أن تطلب المزيد من المال وارتدد في الرد عليها عندما تتصل وتقطع بقصد أن اعيد الاتصال بها لأني اعرف انها ستطلب مالا، وقد وصلت حد أن احسب لها مجموع المبلغ الذي اعطيته إياها منذ عام 1998؛ صدمت حين اثرت الموضوع بهذه الطريقة وردت على قائلة: “في الصداقة لا تحسب مثل هذه الاشياء يا مارينا” فهمت ما قالته وعنته لكنني استغرقت وقتا طويلا قبل ان اكف عن الحساب، وقبلت بطريقة أو بأخرى إنني ادعمها ماديا، وقد بررت مساعدتي لها لنفسني وللآخرين بأني أعيش بمفردي وليس لدى شريك حياة أو أطفال ولا أقارب او اشخاص يحتاجون لمساعدتي المالية، لدى عمل باجر جيد وجزء محدود من قرض عقاري، وليست لدى اية اعباء مالية أخرى، إضافة لذلك استخدمت مجازا “قرية مُتخيلة” لوصف علاقتي بها، نورا بالنسبة لي بمثابة اخت فهي تستقبلني بكرم وصداقة ومحبة عندما أكون في اليمن وابنائها ينادوني “خاله” وغالبا ما تحاول نورا ان ترد على الهدايا بأن تمنحني

²⁵ - المبلغ الذي ينفق في الزواج يتفاوت بتفاوت الطبقات الاجتماعية، افراد الطبقات الدنيا ينفقون بضع مئات من الدولارات في حفل الزواج بينما ينفق افراد الطبقات العليا آلاف الدولارات.

مكانا أقيم فيه عندما أزور الحديدة وبأن تطبخ لي وتجعلني اشعر أنني في بيتي، عندما نكون سويا فإننا نتبادل الافراح والاتراح وندناقش فيما حدث خلال يومنا سواء في حياتنا الخاصة او في الشؤون العامة وفي العالم من حولنا.

عندما أكون في هولندا فإن نورا دائما تسألني عن ابي واخوتي وعن عملي وحياتي الخاصة، لكن محادثاتنا الهاتفية تتركز حول حياتنا فهي تتصل عادة عندما تحتاج للمال او عندما يحدث شيء في اليمن، وانا اتصل بها فقط عندما اتسلم مكالمة او طلب مكالمة منها أو في الأعياد والمناسبات الدينية، في بعض الأحيان لا أتمكن من الرد على مكالماتها بسبب الانشغال الزائد او وبسبب من انزعاجي من مطالبتها بمزيد من المال مباشرة عقب تحويل المساعدة الشهرية لشراء ادويتها، وفي بعض الأحيان لا أرد على مكالماتها التي تفوتني حتى تتصل مرة أخرى لكنني في النهاية ارد عليها واحول لها المال تذكري علاقتي المالية بنورا بعلاقة الكثير من المهاجرين، خاصة القادمين من البلدان النامية بذويهم في بلادهم الاصلية فهم كثيرا ما لا يرغبون في الاتصال ببلداهم الاصلية ولا يردون على المكالمات من أقاربهم هناك، خشية أن يطلبوا منهم المساعدة المادية. يسود في تلك البلدان اعتقاد بأن المهاجرين في حالة مادية ممتازة وانهم قادرون على مساعدة ذويهم ماديا، وبالرغم من التبريرات التي سقتها أعلاه إلا أنني لا اشعر بالارتياح للجانب المالي من علاقتنا وكثيرا ما تساءلت: لماذا؟

احد الأسباب هي حقيقة أنني اكره الشعور بأنني مجبرة على تحويل المال لها كان الامر سيصبح سهلا بالنسبة لي لو كنت ابعث لها المال من وقت لآخر، لأنني احب أن افعل ذلك طوعا عوضا عن اتصالها بي لتطلب مني النقود، بعد العملية الجراحية التي أجرتها نورا، اتفقنا على ان احول لها مبلغ مائة دولار في اليوم الأول من كل شهر لتشتري بها ادويتها، خلال السنوات الثلاثة الماضية تزايد المبلغ باستمرار واصبحت التواريخ التي يجب أن تشتري فيها ادوية جديدة تتغير باستمرار، علاوة على ذلك فإن نورا كثيرا ما تتصل هاتفيا بين تحويل وآخر بسبب من الطوارئ الصحية.

وهناك عامل آخر يزعمني ذي صلة بالشعور بالذنب غالبا ما احول لها النقود لأنني اشعر بالذنب بسبب ظروف حياتي المرفهة، وحقيقة أنني لا يمكن أن اساعدها بشيء سوى ان ابعث لها المال خاصة في الظروف التي تعيشها اليمن حاليا، وتبقى مساعدتها ماليا واحدة من الأشياء القليلة التي يمكن أن افعلها اضافة للاهتمام والتعاطف، ومع ذلك فإنني اشعر بالأسف لأن علاقتنا يشوبها جانب مالي، اثر عليها سلبي حسبما اعتقد يجادل فيرث انه “بمرور الوقت وتحقق التساوي في الشخصيات فإن الفرق بين الباحث الانثروبولوجي ومخبريه الرئيسيين تميل إلى أن تصبح اقل أهمية ويتم تجاهلها نسبيا”، في حالة علاقتي بنورا استعصى تجاهل الفروق المادية بيننا.

تفانم أثر عدم التكافؤ المادي بيننا بسبب حالتها الصحية وما ترتب عليها من احتياج لعملية جراحية وادوية مكلفة، واهم من ذلك تدهور الأوضاع في اليمن يشير البعد المالي في علاقتنا وشعوري بالذنب بوضوح، إلا أن علاقة الصداقة القائمة على التكافؤ والتبادلية قد تم تصويرها على نحو مثالي، ويصدق هذا على وجه الخصوص في أوضاع الازمات الاقتصادية والنزاعات والحروب، يمكن للصداقة ان تصبح وسيلة للتعبير عن التضامن والتعاطف مع الأصدقاء في المناطق التي تسودها النزاعات ويمكن للصداقة أيضا ان تصبح أداة مفيدة للبحث لفهم تأثيرات النزاعات على الحياة اليومية للناس، ومع ذلك يجب أن تخضع الصداقة نفسها للبحث وتصبح موضوعا له خاصة في أوقات الأزمات، وهذا مما يجعل أهمية الصداقة كوسيلة “للتخيل الانثوجرافي عن بعد” (روبن 2012: 3) اكثر جلاءً ووضوحا.

دائما ما تؤكد لي نورا مقدار اهتمامها بي وتقديرها لي وانها لم تكن لتتمكن من مواصلة حياتها دون مساعدتي، وهي تفسر دعمي المادي لها بعبارات دينية “إنها ليست منك او مني إنما من الله، إن الله يحبك وانت طيبة القلب، وأنت تحسنين لمن لا يملكون شيئا، في بعض الأحيان أسأل نفسي ... بالله لماذا تساعدني هذه المرأة؟ نعم والله يا مارينا لذلك الحد ... احبب نفسي قائلة، انها ليست منها ولا مني، إنما من الله .. لقد أعطها الله لي وهي تساعدني لأني ليس لدى شخص اخر في هذه الدنيا، ولأني فعلت الكثير من الخير لأجل الآخرين ولذلك ادخلها الله في طريقي ويعطيها ما تريد في حياتها، والله يعطي الناس ما في قلوبهم فقط.” التأويل الديني لنورا لمساعدتي المالية لها يمكن تفسيره باعتبارها طريقة للقبول بدعمي المالي لها والحد من شعورها بالذنب بسبب ذلك، عقب العديد من النقاشات بيننا حول دعمي المالي لها، أصبحت نورا تدرك جيدا أن مساعدتي لها ليست أمرا مسلما به ولن يستمر للابد.

خلاصة: أصدقاء ام قرابة متخيلة (مجازية)؟

أجادل في هذه الورقة بأن الصداقة يمكن ان تصبح منهاج للبحث ووسيلة لإظهار تضامننا من الناس الذي يعيشون في ظروف سياسية واقتصادية صعبة، وقد استخدمت صداقتي مع نورا نموذجا لذلك فهي واحدة فقط من ملايين اليمنيين الذين تأثروا سلبا بالأوضاع في بلادهم، لكن قصتها تمكننا من ان نتبين الكيفية التي تحولت بها أوضاع الكثير ممن كانوا يعيشون في أوضاع مالية مستقرة نسبيا بفضل وظائفهم الحكومية ليواجهوا الفقر، إضافة إلى عرض قصة حياتها، فقد ركزت اهتمامي على دور الصداقة في أوقات الازمة خاصة دور الدعم المادي للأصدقاء والمخبرين، كانت نورا محض صديقة في البداية لم تتحول لمخبر ومصدر للمعلومات إلا في مرحلة لاحقة عندما أصبحت انا مهتمة بتاريخ اسرتها وتاريخ اليمنيين الآخرين من ذوي الأصول

المختلطة، كان دعمي المالي نتيجة لصداقتنا لكن ماهي طبيعة صداقتنا الآن؟ وهل ما زلنا أصدقاء الآن؟ ام تحولت صداقتنا لشيء اخر نتيجة لدعمي المالي لها؟ ماذا تعني الصداقة بالنسبة لها؟ وماذا تعني بالنسبة لي؟ وهل لدينا نفس الأفكار والتصورات حول معنى الصداقة والدور الذي يلعبه المال فيها؟ وبأي طريقة تختلف صداقة نورا بالنساء اليمنيات الاخريات عن صداقتها لي؟

في لقائي بنورا واستجوابي لها في فبراير 2013 تحدثنا بشكل مفتوح عن دعمي المالي وما يعنيه بالنسبة لها وبالنسبة لي لكننا لم نتناول موضوع صداقتنا، بتأمل علاقتنا احد نفسي قد خلصت إلى أن طبيعتها اقرب إلى علاقة قرابة متخيلة اكثر منها علاقة صداقة، البعد المالي في علاقتنا وخاصة حقيقة شعوري بأنني ملزمة بتحويل النقود لها علامة تدل على أننا لم نعد مجرد أصدقاء، ولم تعد علاقتنا طوعية مبنية على أساس الندية والتبادلية والتكافؤ عوضا عن ذلك أصبحت علاقة محتومة على كلينا.

نورا تحتاج لدعمي المادي لتعيش وانا ملزمة أخلاقيا بتقديم ذلك الدعم لها دائما ما تشير نورا إلى اننا “أقسمنا العيش والملح” وهو تعبير تقليدي قبلي يعني أن الذين تشاركوا وجبة واحدة سويا يصبحون أفرادا في اسرة واحدة، وهي تقول لي أيضا: انني اهم من اختها بالنسبة لها وأني رأيت وتابعت أولادها يكبرون وانهم ينادوني “يا حالة” وبهذه الطريقة تجعل نورا علاقتنا علاقة قرابة متخيلة (مجازية) معززة التزامي الأخلاقي بدعمها.

دائما ما يستخدم الناس القرابة المتخيلة والمجازية وشبكات الأصدقاء كوسيلة للحصول على المكاسب وتيسير حياتهم المادية كما أوضحت كارول ستالك (1975) في دراستها الاثنوجرافية حول مجتمع السود في مدينة نيويورك، لكن لهذه الشبكات أهميتها أيضا في خلق الالفة والمودة والندية التبادلية، لذا يجب ألا ننظر إليها باعتبارها محض أدوات نفعية فعدم التكافؤ المادي بين الأصدقاء وخاصة اعتماد احدهما على الآخر تؤثر على الصداقة إلى حد كبير، تظهر حيرتي وشكوكي العاطفية حول دعمي المالي لنورا أن عدم تكافؤ القوي في علاقتنا ليست أحادية الجانب لأن نورا أيضا تملك نفوذا وقوة ذات اثر على، وانا أجد صعوبة في خلق التوازن ولم تتحقق (بعد) في علاقتي بنورا “التبادلية والندية الجذرية” التي ظهرت في بحوث تاليمان-هيلي (2003) وجاي بلاسكو ودي لا كروز هيرنانديز (2012).

امتان وعرفان

أود ان أتقدم بالشكر لماريو باوتيلار وأليس جونكر وايلي دي ريخت، وراينهليدا كونينج ومارتا بالوش لملاحظاتهم القيمة على النسخ المبكرة لهذه الورقة ولمارتا بالوش لتحرير الورقة.

REFERENCES CITED

1. Abu-Lughod, Lila (1993). *Writing Women's Worlds: Bedouin Stories*. Berkeley: University of California Press.
2. Behar, Ruth (1990). Rage and Redemption: Reading the Life Story of a Mexican Marketing Woman. *Feminist Studies* 16(2): 223-258.
3. Behar, Ruth, and Deborah A. Gordon (1995). *Women Writing Culture*. Berkeley: University of California Press.
4. Bell, Sandra, and Simon Coleman (eds.) (1999). *The Anthropology of Friendship*. Oxford: Berg.
5. Carmichael, Tim (2006). The Diaspora in Yemen. IN *Routes of Passage: Rethinking the African Diaspora*, R. S. Hamilton (ed.). East Lansing: Michigan State University Press, pp. 77–84.
6. Casagrande, J.B. (ed.) (1960). *In the Company of Man: Twenty Portraits by Anthropologists*. New York: Harper and Brothers.
7. Caton, Steven C. (2005). *Yemen Chronicle: An Anthropology of War and Mediation*. New York: Hill and Wang.
8. de Regt, Marina (2007). *Pioneers or Pawns? Women Health Workers and the Politics of Development in Yemen*. Syracuse: Syracuse University Press.
9. de Regt, Marina (2010). *Gendered Memories of Migration: Towards A Social History of Ethiopian Women's Migration to Yemen*. Paper presented at the 8th European Social Science History Conference, April 13-16, 2010, Ghent, Belgium.
10. Desai, Amit, and Eva Killick (eds.) (2010). *The Ways of Friendship: Anthropological Perspectives*. New York: Berghahn Books.
11. Dresch, Paul (1989). *Tribes, Government and History in Yemen*. Oxford :

Clarendon Press.

12. Firth, Raymond (1999). Preface. IN *The Anthropology of Friendship*, Sandra Bell and Simon Coleman (eds.). Oxford: Berg.
13. Frank, Gelya (2000). *Venus on Wheels: Two Decades of Dialogue on Disability, Biography and Being Female in America*. Berkeley: University of California Press.
14. Gay y Blasco, Paloma, and Liria de la Cruz Hernandez (2012). *Friendship, Anthropology*. *Anthropology and Humanism* 37(1): 1-14.
15. Gay y Blasco, Paloma (2011). *Agata's Story: Singular Lives and the Reach of the "Gitano Law."* *Journal of the Royal Anthropological Institute* 17: 445-461.
16. Honwana, Alcinda (2012). *The Time of Youth: Work, Social Change and Politics in Africa*. Boulder: Lynne Rienner Publishers.
17. Jonker, Ellis F. (2007). *Vriendschap als Leidraad: Vragen naar Levensverhalen in Interviews*. IN *Kwalitatief Interviewen: Kunst en Kunde*. Lemma, Jeanine Evers (ed.). Den Haag: Boom Lemma, pp. 161-174.
18. Kennedy, John G. (1987). *The Flower of Paradise: The Institutionalized Use of the Drug Qat in North Yemen*. Dordrecht: D. Reidel Publishing Company.
19. Kirsch, Gesa E. (2005). *Friendship, Friendliness, and Feminist Fieldwork*. *Signs: Journal for Women in Culture and Society* 30 (4): 2163- 2172.
20. Manger, Leif (2010). *The Hadrami Diaspora: Community-building on the Indian Ocean Rim*. New York: Berghahn Books.
21. Okely, Judith, and Helen Callaway (eds.) (1992). *Anthropology and Autobiography*. London: Routledge.
22. Robben, Antonius C.G.M. (2010). *Ethnographic Imagination at a Distance: An Introduction to the Anthropological Study of the Iraq War*. IN *Iraq at a Distance: What Anthropologists Can Teach Us About the War*, Antonius C.G.M. Robben (ed.). Philadelphia: University of Pennsylvania Press, pp. 1-23.
23. Stack, Carol (1975). *All Our Kin: Strategies for Survival in a Black Community*. New York: Basic Books.
24. Tillmann-Healy, Lisa M. (2003). *Friendship as Method*. *Qualitative Inquiry* 9(5): 729-249.

26. Tillmann-Healy, Lisa M. (2015). Friendship as Method. IN In Solidarity: Friendship, Family and Activism beyond Gay and Straight. New York: Routledge, pp. 287-319.
27. UNOCHA (2014). Humanitarian Response Plan 2014. UN Office for the Coordination of Humanitarian Affairs.
28. Visweswaran, K. (1997). Histories of Feminist Ethnography. Annual Review of Anthropology 26: 591-621.
29. vom Bruck, Gabriele (1996). Being Worthy of Protection: The Dialectics of Gender Attributes in Yemen. Social Anthropology 4(2): 145-162.
30. vom Bruck, Gabriele (2005). Islam, Memory, and Morality in Yemen: Ruling Families in Transition. New York: Palgrave Macmillan.
31. Walker, Iain (2008). Hadramis, Shimalis and Muwalladin: Negotiating Cosmopolitan Identities between the Swahili Coast and Southern Yemen. Journal of Eastern African Studies 2(1): 44-59.
32. Whitaker, Robin (2011). The Politics of Friendship in Feminist Anthropology. Anthropology in Action 18(1): 56-66.
33. Weir, Shelagh (1985). Qat in Yemen: Consumption and Social Change. London: British Museum Publications Limited.
34. Weir, Shelagh (2007). A Tribal Order: Politics and Law in the Mountains of Yemen. Austin: